تعقيبات

بأية حال عدت يا عيد ؟!

خرج شاعر العربية أبو الطيب المتنبي من مصر هارباً في سبيل آماله ، فأتى عليه عيد الأضحى وهو شريد في الصحراء ، تملأ نفسه الوحشة ويستبد به الحنين ، فثارت شاعريته بتلك الصرخة الأليمة الخالدة :

عيد ! بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم بأمر فيك تجديد؟!

واليوم ، يأتي علينا عيد الضحية ، ونحن في حال الشاعر الكبير ، نشيدنا هو تلك الصرخة الأليمة التي هتف بها في أذن الزمن من قديم ، فكلنا ضحية للمرض الناثل ، والوهم القاتل ، والهم الجاثم ، وكلنا غريب تملأ نفسه الوحشة والفرقة ينشد قول أبي الطيب :

عيد بأية حال عدت يا عيد .

إن الأمر لله من قبل ومن بعد ، فيا بارىء الناس غوثك ورحمتك بالناس . . فاللهم اكشف الضر عن عبادك أجمعين ، وارفع الشر عن جندك المسلمين ، وأدرك بعنايتك الفياضة هذه الأمة الضارعة إليك فيعود عليها هذا العيد بالخير العام ، والسرور والسلام . .

أوب . . الكوليرا :

في عام ١٩٠٢ هجم وباء الكوليرا على مصر هجوماً عنيفاً فلأ نفوس الناس بالفزع ، وملأ عواطف الشعراء بالتأثر ، ففاضت قرائحهم بالقصائد في التنديد على ذلك الوافد الثقيل ، وتطعين الخواطر للأقدار الجارية ، مما لو جمع لكان ديواناً يمكن أن يسمى « ديوان الكوليرا » .

أذكر من ذلك قصيدة للمرحوم الشاعر أحمد محرم تصور حال ذلك الوباء في تلك الأيام وشدة تأثيره على نفوس الناس ، ويقول في مطلعها :

ضيف ولكن لا أقول سلام ولرب ضيف ذم منه مقام
ربعت لطلعتك القلوب وهالها هذا التوثب منك والإقدام
تسطو على سرب النفوس وإنما يسطو على سرب الحياة حمام
وتصول ما يثنيك عن آجالنا عذل تؤجج نارة وملام
لو كنت ذا قلب يرق لنادب أمنت بلاءك هذه الأقوام
الله في أرواحها ونفوسها إن كانت التقوى لديك تُرام

وإنهم ليؤكدون لها في ميوعة وخبث أنهم « في الخدمة » ، وأن « الهانم » لن تعود بعد يومين إلا وقد انتهى كل شيء ... وتنظر إلى هذا فتقول : يا لئيم ! وإلى ذاك فتقول : يا نصاب ! وإلى ثالثهم فتقول : يا مكيرا وتغمز بعينها وتضحك ... ويتكلمون بالأحداق ، أو يتغامزون بالأيدي ، وينصرفون ليقولوا خارج الحجرة ما يشاءون !

وتنظر المحزونة إليها فيتضاعف حزنها ، وإن صاحب القلب المحزون ليعرف أقصى حزنه حين يجد نفسه وحده بين قوم لاهين ضاحكين ! وأنظر إلى هذه الشكلى لا يعنى بها أحد ، ولا يفكر في أمرها أحد ، فتشمئز نفسي من لؤم هذه الحياة !

ورن الجرس ، فخف المدير إلى حجرة رئيسه ، ثم عاد يشير إلى صاحبته لتدخل ، ومشت إلى الباب في خفة كأنما تريد أن تجري ، ورائحة عطرها تملأ الخياشيم ... ونظرت إلى تلك الزهرة التي لا يفوح منها عطر ، فإذا حمرة تورّدُ هذا الماج الصفار في وجهها هي حمرة الغضب ، وإذا يجفونها المقروحة تندى ، وإذا بها تمسك دموعها في جهد !

وتمشي إلى مكتب المدير في أناة وخشوع ، وتقول له في صوت مختنق متهدج ... إنها تعتذر إذ لا تستطيع البقاء ، فما يزيد على أن يقول لها في سماجة : « على كيفك يا ستي ... الناس له منتظرين كلهم أم ... وأنا أعمل إيه ؟ »

وانصرفت المسكينة فما بلغت الباب حتى انهمرت دموعها ، فسحت عينيها بمنديلها ، وما في الحجرة ممن ينتظرون الإذن إلا من تحرك قلبه شفقة عليها ورثاء لها !

ولا أريد أن أذكر للقارئ متى جاء دوري أنا « المؤلف الفاضل » ، أحد حملة القلم المتواضعين الذي ما جئت أرجو في شيء ، والذي يعرفني منذ سنوات هذا الكبير الذي لا تخلو من أمثاله وأمثال مديره أكثر الدواوين !

الضيف

أوقدتها حرباً يشب ضرامها فمتى يغيث الناس منك سلام
شر الضيوف ولا إخالك غيره ضيف له نفس المضيف طعام

ثم يصف الشاعر موقفه فى هذه الغمرة فيقول :

أتظن أن الخوف يملك منطقى ؟ نظم القريض إذن على حرام !
أم أنت تطمع أن يدين لحادث قلم تدين لربه الأقـــلام ؟
أسطو عليك به وأعلم أنه قدر تطيش لهوله الأحلام
كف الوعيد فإن أنفاس الفتى معدودة وكذلك الأيام
ولكل نفس مدة محدودة ولكل شىء غاية وتمـــام

ثم يقول :

يا ضيفنا المكروه يومك بيننا شهر وشهرك إن تقاصر عام
أنى حللت من المدائن والقرى حل البلاء وزادت الآلام
يا ضيفنا لو لم تكن قدراً لنا ضربت على الأقدار منك خيام
إن اغتيالك ذا الحصانة بيننا عيب يجانبه الكريم وذام
أم الغنى تخاف ويحك أم ترى أن الغنى من حقه الإعظام

وأخيراً يختم قصيدته بهذا البيت :

سر أو أقم إن المنون رواثح وبواكر ومن المحال دوام

والقصيدة طويلة ، وقد اقتصرت منها على هذه النماذج ، ولو كان فى المقام سعة لأوردت كثيراً من النماذج من قصائد الشعراء فى التنديد بذلك الوباء ووصف نكبة الشعب فى تلك الأيام

وفى هذه الآونة يهجم وباء الكوليرا على مصر ، ويفعل أفاعيله بأرواحهم ، وفى نفوسهم ، وتتحرك الدنيا كلها لهول الخطب ، ولكن أحداً من شعرائنا لم يتحرك أبداً ، ولم يثر هذا فى نفسه عاطفة الشعر كما تثيره حادثة غرام ، أو ليلة وصل ، أو هجر غانية تبيع قلبها وجسمها فى كل سوق ، أو صورة مبتذلة فى مجلة ماجنة ...

ألا رحمة الله ، ثم رحمة الله ، على شعرائنا الذين كان الشعب يجد نفسه فى عواطفهم وفى قصائدهم ، ورحمة الله لشعراء هذه الأيام ، شعراء القبلة الأولى ، والليلة الحمراء ...

الرسائل فى الأدب العربى :

نشر الأديب أحمد محمد عيش فى العدد الأخير من مجلة « الكاتب المصرى » بعض الرسائل الأدبية التى تبادلها مع الشاعر العراقى الكبير المرحوم الأستاذ جميل صدقى الزهاوى ، وقدم الأديب لذلك بمقدمة قال فيها :

« ... هذا لون من ألوان الأدب الجديد — أدب الرسائل — استحدثناه ، أو بعبارة أخرى نبشنا دفائنه وأحييتا مواته ، ذلك لأن اللغة العربية لم تحظ بهذا اللون الجميل ، اللهم إلا فى النادر القليل ، بعكس اللغات الأجنبية ، فإنها مشحونة بهذا الضرب الرفيع بنماذجه الرائعة وأنماطه العذاب ... » .

ومسكين والله هذا الأدب العربى ، كأن الله كتب عليه فى هذه الآونة أن يكون هدفاً للدعوى من كل فارغ الرأس ، ومقصداً للاتهام من كل جاهل ، وأنا لا أحسب أن فى نفوس هؤلاء الشبان ضغينة على الأدب العربى ، ولكن العلة أنهم يحسبون أن الأدب العربى هو ما يقرؤونه فى الصحف والمجلات ، وما يدرسونه من النماذج الجامدة البالية فى مقررات المدارس ، فإذا ضممت إلى ذلك دعوى عريضة تمتلىء بها الرءوس الفارغة ، وتلتوى بها الألسن الموجة ، وقفت من وراء ذلك على أصل العلة وموطن الداء ... وإنه لداء تفشى بين شبان العصر ، فليس أسهل على الواحد منهم من أن يحمل القلم ، ويتنفج بالدعوى العريضة ، ويمد أنامله فيخط كلمات رشيقة رقيقة يطمس بها تاريخ الأدب العربى من بدايته إلى نهايته ، وينكر أن يكون هذا الأدب أدباً ... —

عشت يا سيد عيش ... « تستحدث فى الأدب العربى » ما ليس فيه من « النماذج الرائعة والأنماط العذاب » ، ولكن صدقنى أيها الأخ أن الأدب العربى حافل بالرسائل التى من هذا اللون ، بل إن الأدب العربى يمكن أن يسمى أدب الرسائل والمحاضرات والمطارحات ، بل إن المؤلفات الأدبية والعلمية لم تكن إلا رسائل يقدمها أصحابها إلى الأصدقاء ، أو يرفعونها إلى الرؤساء ، وأنا على استعداد أن أضع يدك — إذا أردت — على ألف رسالة ورسالة من ذلك اللون الذى تريده فى حديث الكتاب عن أنفسهم وعن صلتهم بالناس وبالحياة ، ولكنى أعتقد أنك لا تريد هذا أبداً حتى تظل على الاعتقاد بأنك قد « استحدثت » هذا اللون من الأدب فى الأدب العربى .

قد يكون للأديب « عيش » عذره فيما يقول ، ولكن ما عذر أستاذنا الدكتور طه حسين الذى يشرف على تحرير « الكاتب المصرى » فى أن يحمل هذا الفضول على الأدب العربى ... فإن كان الدكتور يرى هذا ويعتقده فإننى على استعداد لمناقشته فى هذا الرأى ...

« الجاحظ »